شمس لا تشرق من باريس

قصة بقلم حنفي بن عيسى

« كنت لا انقطع عن التفكير ، وانا اتلقى ابشع انواع التعذيب ، فياخواني واخواتي ، في بن مهيدي وجميلة .. وكنت اردد دائما فيما بيني وبين نفسي : ان الانسان يمكن ان يغطى بالقذورات وان يظل رغم ذلك نظيفا » .. (من شهادة الطالب الجزائري بن عيسى سوامي في كتاب « الجرح المتعفن (١) « La gangrène »

لاشك ان هناك شيئا قد انقطع بيننا .. لم تعد الامور تجري كما كانت في السابق ، فهو يتجنب لقائي والحديث معي . انني اعرفه جيدا ، فقد تقاسمنا مقاعد الدراسة مدة ست سنوات في ثانوية بوجو بالجزائر .. كنت اتنافس معه على الاولية في صف الفلسفة . وكانت هذه المنافسة فرصة للتعارف وأكاد اقول : للصداقة .. انا متأكد انه لم يكن صديقي بكل معنى الكلمة .. فقد كان ينظر الي على انني شخص لا ارقى الى طبقته . لانه ينتمي الى اسرة غنية من المعمرين الفرنسيين. وانا .. من اكون انا ؟.. طالب فقير ، استطاع بعرق الجبين ان يحصل على منحة دراسية ولولا ذلك ماكان ليدخل المدرسة .. وما كان ليتعرف على مثله من ابناء الطبقة الغنية المترفة .. وما كان لينافسه على الاولية في صف الفلسفة .. كانت هذه الامور تحول دون قيام صداقة حقيقية بيننا ، ومع ذلك فان السنوات الست التي قضيناها معا قد انشأت بيننا نوعا من الزمالة .. لاترقى الى درجة الصداقة بكل تأكيد ، ولكنها لاتخلو من معاني الود على كل حال .

لاشك ان هناك شيئا قد انقطع . شعرت بذلك عندما انتقلنا الى جامعة السوربون لاتمام دراستنا العالية ، فقد حدثت حوادث جعلت زملاءنا الفرنسيين الذين كنا نعرفهم في الجزائر يغيرون موقفهم منا .. كنا في الماضي نحظى ببعض الاحترام ، او على اقل تقدير كنا لانتعرض للسجن والتعذيب . اما بعد ان نقلت جبهة التحرير نشاطها الى فرنسا، ودمرت مستودعات البترول فقد شملنا الارهاب والتعذيب واصبحنا نعيش في جو من القلق والخوف . على اثر تلك الحوادث اشتهر مركز البوليس في شارع دي الصوصي ، رئيس المركز هو السيد فيبو . السيد فيبو متحمس لوطنه الى درجة انه اقتبس جميع الوسائل التي كانت تستعملها الجستابو . انه شخص يحب وطنه وهو من اجل ذلك يستحق وسام الشرف .. انا متأكد ان الجرائد ستطلعنا ذات يوم ان الجنرال ديغول قد منح السيد فيبو وسام الشرف من اجل خدماته التي لاتقدر بثمن .

لقد مر على ذلك المكان الرهيب في شارع دي الصوصي كثير من الاخوان : صديق ، سليمان ، بلحاج ، وغيرهم ، واصبحنا نعيش في خوف مستمر من ذلك المكان ، كل واحد منا يتساءل : متى سيجيء دوري ؟.. وهذا الشعور المشترك بالقلق هو الذي جعلنا نجتمع في غرفة الاخ بلحاج في المدينة الجامعية ، عندما سمعنا انه اطلق سراحه. بلحاج مرح للغاية وطابع المرح لايفارقه ابدا حتى في اسوأ الظروف .

عندما دخلت الى غرفته كان يقدم الشاي الاخضر الى الاخوان صديق وسليمان ورزقي والاخت فضيلة .. فما كاد يراني حتى قال بصوته المرح :

ـ كيف الصحة ياسقراط ؟..

لا اعتقد انني اشبه سقراط لان رأسي صغير نسبيا ، وانا اتخيل دائما سقراط برأس كبير جدا ولكن كان من عادته ان يناديني بهذا الاسم . ربما لاني ادرس الفلسفة او ربما من اجل النظارات او من اجل الصلعة التي بدأت تلمع وتعطي مظهري مسحة من التفكير والرزانة ..

ـ الحمد لله . كيف صحتك انت ؟.. احك لي ماذا وقع لك ..

ـ ياأخي اخاف على اعصابك ، ثم انك سترى ذلك بعينيك . لاتخف ياسقراط سيجيء دورك ذات يوم . بلغني انك تستعد لكتابة رسالتك الجامعية في السجن . فكرة مدهشة والله .. انها جديرة بالفلاسفة الكبار ..

ـ ارجوك يابلحاج . يكفي قل لي كيف وقع ذلك ..

وتغيرت ملامح وجهه ، وبدا عليه الجد واخذ قلما كان موضوعا امامه فوق الطاولة واخذ يرسم خطوطا لا معنى لها ثم قال لي :

ـ زميلك الفرنسي الذي عرفتني عليه في بداية السنة .

ـ من تقصد ؟..

ـ كلود ..!

ـ انت متأكد ؟ كلود الذي كان زميلي في مدرسة بوجو ؟..

ـ متأكد تماما ..

ـ ماذا حدث لك معه ؟..

ـ هدئني قبل ان يلقي علي القبض .. اعتقد انه من المكتب الثاني ..

**

ذاك المساء .. لم انتبه الى المحاضرة ولا اذكر شيئا مما قاله الاستاذ، كنت افكر في الحوادث التي تقع للطلبة الجزائريين في شارع دي الصوصي وكنت اتخيل وجوههم الباسمة المشرقة وقد شوهها التعذيب.. انتهت المحاضرة ، فخرجت الى الشارع . المطر ينهمر ـ والضباب كثيف . وانا اسير في وسط الضباب ثقيل الخطو . الناس من حولي يسرعون خطاهم هربا من المطر ، اما انا فلا يهمني ان تبتل ثيابي او لا تبتل . انه مطر خفيف ، ولكنه مستمر لاينقطع . احس بوقعه الناعم على الارض . انه صوت القطرات التي تتساقط على الارض تخدر حسي وتملأ نفسي بالوف من المشاعر الناعمة ..

لاأدري لماذا اشعر بالحزن كلما سقط المطر ، ربما لانني غريب في هذه الديار ، او لانني لم اتلق رسالة من اسرتي منذ زمن بعيد ، ولكن في هذا اليوم بالذات اشعر بالحزن والالم اكثر من اي وقت اخر فقد حملت الينا الجرائد خبرا اهتزت له قلوبنا فقد قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بعمل قرصنة واختطفت الزعماء الجزائريين الخمسة ..

اني لاسمع الباعة يصرخون النبأ المشؤوم ، والمطر لايزال ينهمر ، والضباب من حولي كثيف ، وانا اسير في وسط الضباب ثقيل الخطو.. لاداعي للعجلة . وتذكرت بيت الشاعر الفرنسي فرلين « ان قلبي لينتحب حينما يسقط المطر في المدينة » ورددت البيت فيما بيني وبين نفسي، خافت الصوت اولا ، ثم رفعت صوتي عاليا ..

لماذا يا الهي تختطفهم يد القدر حينما تكون البلاد في اشد الحاجة اليهم ؟ متى سيحرك مايسمونه بالضمير العالمي لينتدد بهذه الاعمال ..؟. واسرتي ، لماذا انقطعت عني اخبارها في هذا الظرف بالذات ؟...

(١) عنوان كتاب الفه بالفرنسية خمسة طلاب جزائريين في احد سجون باريس .

ثم وجودي انا في هذه المدينة التي يكرهنا اهلها كراهية سوداء ،ويكيدون لنا بالليل والنهار ، الى متى سيستمر على هذه الحال من القلق والخوف وعدم الاطمئنان ؟...

المطر لايزال ينهمر ولا بد لي من ان التجيء الى احد المقاهي ريثما ينقطع .. ولعل هذا المقهى القريب من الحي اللاتيني ملائم .. فمن الممكن جدا ان اصادف هناك بعض الاخوان من الطلاب . ان الضجيج قد بلغ اشده في المقهى خصوصا مع تلك الموسيقى الصاخبة التي تنبعث من صندوق الاسطوانات . اني ارى من خلال الدخان الكثيف شابا وبنتا مستندين على الصندوق ولعلهما يغذيانه بالقطع النقدية حتى لاتنقطع الموسيقى الصاخبة . تلك الطاولة المنعزلة ملائمة تماما للجلوس ولكن لم اكد استقر في مكاني حتى وقف امامي اربعة شبان بقاماتهم الطويلة وعرفت احدهم ، انه زميلي الفرنسي بمدرسة بوجو ، وسمعته يقول لرفاقه :

ـ هذا واحد منهم ..

كان احدهم يحمل قنينة من الخمر ، فملأ كاسا وقدمها لي :

ـ شكرا ، انا لا اشرب الخمر ..

ـ لاتشرب الخمر ؟.. ماذا تعني ؟..

ـ عفوا . اعني انني لا اشرب الخمر مطلقا ..

ـ ولكن اذا عرفت المناسبة فلا بد ان تشرب ..

ـ وما هي هذه المناسبة من فضلك ؟..

ـ الم تشاهد كيف يحتفل الطلاب بانتصارنا العظيم ؟.. الم تستمع الى الراديو ؟..

ـ الم تقرأ في الجرائد ان لاكوست قد اختطف زعماء الثورة ؟..

ـ لااريد ان اشرب .

فقال لي زميلي في الدراسة كلود :

ـ ينبغي ان تبرهن انك مواطن فرنسي صالح وان تشرب نخب الانتصار العظيم ..

ـ قلت لكم لااريد ان اشرب ..

عند ذلك استدار الطالب الاول الذي قدم لي كأس الخمر الى كلود وقال له بلهجة ساخرة ... :

ـ اسمع ياكلود . ان صاحبك شجاع .. شجاع جدا ..

وقال الثاني :

ـ اسمع ياكلود . ان صاحبك عنيد .. عنيد جدا ..

ويبدو ان كلود قد تحمس فقال مهددا :

ـ انهم جميعا من طينة واحدة . اتركوه لي .. ساعطيه درسا في الادب ..

كنت لاأزال جالسا على الكرسي ، وقبل ان اقف على قدمي استعداد للمعركة ، ركلني كلود بضربة قوية فانقلب الكرسي ووقعت على الارض وفقدت النظارات ولم اعد ابصر الا من خلال الضباب . اللئام ! رموني بالكأس التي رفضت ان اشربها ..

وتحسست بيدي على الارض فوجدت النظارات ، ثم وقفت على قدمي ولكن لم يتقدم احد منهم لقد توخل طرف ثالث في المعركة . انه صديقي رزقي . ربما كان موجودا في المقهى عندما دخلت ولكن لم انتبه اليه .. رزقي بطل رياضي مفتول العضلات وليس مثلي ضعيف البنية ، رأيته يضرب كلود ضربة قوية على عنقه . فيختنق ويشهق ويتمايل ثم يصطدم بصندوق الاسطوانات . انقطعت الموسيقى الصاخبة وتطلعت الوجوه الى ساحة المعركة ولكن لم يتدخل الطلبة الثلاثة الاخرون . ولعلهم كانوا خائفين من ان تصبح المعركة عامة بين الطلبة العرب والطلبة الفرنسيين . ثم خرجت من المقهى مع صديقي رزقي . كان المطر قد انقطع ، وكان الظلام قد هبط على المدينة ، وكانت حروف النيون البراقة تتراقص امام عيني بسرعة هائلة . وتساءلت : ترى ماذا تخبيء لنا الايام ؟ وفكرت في الموضوع قليلا ولكن لم اعثر على جواب يرضيني ،ثم قلت في نفسي انه سؤال سخيف على كل حال ولا يستحق الاهتمام ..

***

لقيته بعد اسبوع من وقوع الحادث في مطعم يعد ماكولات وطنية. كثيرا ماكنا نلتقي في ذاك المطعم الذي يديره احد المواطنين . جلست الى طاولته وبعد التحية قلت له مداعبا :

ـ ماذا عندك من جديد يارزقي ؟..

ـ ليس عندي جديد ..

ـ لاتحاول ان تخبيء عني . لقد رأيتك ..

ـ رأيتني ؟.. اين رأيتني ؟.. قل لي بربك ماذا تقصد ؟. .

ـ رأيتك في السينما ..

ـ في السينما ؟.. وهل هناك بأس في ان يذهب المرء الى السينما؟..

ـ انها جميلة على كل حال .. هل تعرف يارزقي ان ذوقك بدأ يتحسن في هذه الايام الاخيرة ؟..

ـ من تقصد ، قل لي بربك من تقصد ؟..

ـ البنت التي كانت معك البارحة في السينما .. جميلة والله ؟..

واستغرق رزقي في ضحك صاخب . كانت اكتافه العريضة تهتز من شدة الضحك ..

ـ ياصاحبي انت في هذه المرة مخطيء . البنت التي شاهدتها البارحة معي هي اختي دليلة . لقد وصلت منذ اسبوعين لتلتحق بمدرسة الفنون الجميلة ..

ـ يامجرم . ايكون لك اخت في مثل جمالها ولا تخبرني عنها ؟.

ـ قد لاتعرفها انت . ولكنها تعرفك ..

ـ تعرفني ؟. هي تعرفني ؟. انت متأكد انها تعرفني ؟..

ـ على مهلك ياهذا . اراك متحمسا جدا . اقصد انها تعرف اختك. كانت زميلة لها في المدرسة .. ولا شك ان اختك قد حدثتها عنك .

ـ وماذا حملت من الاخبار ، قل لي ما هي الاخبار ؟. كيف الحالة هناك ؟.

ـ تستطيع ان تسألها بنفسك اذا زرتنا يوم الخميس المقبل ..

ـ يوم الخميس ؟. طيب الى اللقاء ..

***

عندما دخلت بيت صديقي رزقي كنت اتساءل كيف تستقبلني اخته دليلة . لاشك انها كانت تعرفني لان اخاها رزقي من اعز اصدقائي ولا شك انها قد رأتني عندما كنت ازوره في البيت . لاادري كيف انني لم انتبه اليها عندما كنت في الجزائر فربما لانها كانت صغيرة . وربما كانت تتجنب لقائي حياء وخجلا ، فقبل نشوب الثورة كانت جميع العلاقات بين الشباب من الجنسين محرمة تحريما قاطعا ، وكانت البنت محاطة بسياج من التقاليد والعادات .

قال لي ابن عمي سعيد في احدى رسائله ان البنت الجزائرية قد تغيرت منذ نشوب الثورة . لقد تكونت شخصيتها لانها اصبحت تتحمل كثيرا من المسؤوليات ، فعليها كزوجة ان تكون يقظة حذرة حتى لايتعرض زوجها للخطر ، وعليها في بعض الاحيان ان تتصل بابن الجيران وان تتنبهه حتى لايقع في يد البوليس . كان الوالد يخاف بصورة تقليدية من الفضيحة ولكن هذا الخوف قد اصبح سخيفا امام المأساة التي يعانيها الشعب باسره . وقد تغلب الواجب الوطني وحطم القيود التي كان يفرضها الوالد على بنته ، وهذا الواجب يدعو البنت في بعض الاحيان ان تهجر المنزل لتعيش في الجبال ، وتنام في المغارات وتلبس لباس الرجال وتحمل البندقية ..

كنت اسمع بهذه التطورات التي حدثت في العقلية الجزائرية . ولكن كنت اتمنى دائما لو تتاح لي الفرصة لمشاهدة ذلك . وها هوذا صديقي رزقي يقدم لي فرصة ثمينة .

كان الاستقبال من الاخوين اكثر مما كنت اتوقع ولم تمض دقائق حتى اصبح الجو عائليا واحسست بتلك الحواجز المنيعة التي كانت تفصلني عن البنت الجزائرية قد انهارت ، واختفت مشاعر التحريم التي كانت تمنعني من الحديث امام المرأة . ولاول مرة شعرت انني استطيع ان اتكلم امام المرأة بحرية ، وانا اتبادل معها الاراء . كان

حديثنا عفويا فيه شيء من الجد وغير قليل من المرح . وتعجبت من نفسي كيف اصبحت محدثا بارعا يتكلم فيرى وجها باسما يصغي لحديثي باهتمام . ويضحك لنكتتي . لم يخطر ببالي في يوم من الايام انني ساكون جريئا الى درجة ان اقول نكتة امام الجنس اللطيف . انني اخاف من النكات « البائخة » . يخيل الي في بعض الاحيان انني سانتحر اذا قلت نكتة بائخة امام بنت .. ولكن حدثت المعجزة .. لقد اصبحت استطيع ان اجعل الاخرين يضحكون .. وان انقل اليهم بعضا مما احسه واشعر به ..

وسالتها عن الاهل والاصدقاء ، وقالت لي انهم بخير واعطتني تفاصيل مدهشة عن الحياة اليومية في بلدتنا الصغيرة . وكنت استمع اليها في شيء من الدهشة وهي تقول :

ـ مصطفى .. هل تعرف مصطفى ؟ لاشك انك تذكره .. ابن الخباز، الا تذكر ؟ التحق بالجبل .. كنت اشتغل معه في النظام ..

وسالتها عن المعنى الثوري للنظام ، فاذا بها تعلم اكثر مما اعلم . عن اجهزة جبهة التحرير المختلفة ، وعن الخلايا السرية التي انشئت في كل مدينة وفي كل قرية ، وعن منظمات الارهاب التي يشترك فيها الرجال والنساء ، وحدثتني عن الشعب الذي آمن بعدالة قضيته فاصبح يخوض المعركة جنبا الى جنب مع جيش التحرير . وهكذا مرت ساعات غيرت خلالها كثيرا من أفكاري ، ثم افترقنا على امل اللقاء مرة ثانية ..

***

لا اعتقد اننا سنلتقي قبل ان تمر فترة طويلة من الزمن ، فقد القي على القبض في منزلي بحي سان دنيس بعد يومين من زيارتي لصديقي رزقي . كنت على موعد معه في احد مقاهي مون بارنس على الساعة العاشرة . ولكنني انتظرت هناك عبثا . وقلت في نفسي . لعلي ساجده في المدينة الجامعية في زيارة بعض الاخوان من الطلاب .. ولكنني وجدت رجال البوليس يحرسون المدخل وحينئذ قررت ان ارجع الى البيت ، فقد ادركت ان رجال البوليس يطاردون الطلاب في تلك الليلة . ولم اكد افتح باب غرفتي حتى فوجئت بثلاثة من رجال البوليس يوجهون الي فوهات الرشاشات الصغيرة ، وسمعت احدهم يقول لي :

ـ ارفع يديك ..

فرفعت يدي ، وفتشوني ولكن لم يجدوا سوى اوراقي الثبوتية ، والقيت نظرة على الغرفة : كانت ادراج المكتب والخزانة قد افرغت من محتوياتها .. وكان السرير قد قلب رأسا على عقب ..

ـ أين وضعت الوثائق ؟..

ـ اي نوع من الوثائق ؟..

ـ وثائق جبهة التحرير .. نحن نعلم انك احد الرؤساء .

ـ لست سوى طالب وليس عندي وثائق ..

فقال احدهم ..

ـ سيتكلم في المركز ..

ثم وجه الي الكلام :

ـ نعم ستتكلم في المركز رغما عنك .. هل تعرف شارع دي الصوصي؟ هل سمعت بالمسيو فيبو مدير الامن العام ؟ انه ينتظرك . وستجد بعض الاصدقاء من عصابتك ينتظرونك بلحاج ، بشير ، رزقي ..

ثم وضعوا في يدي القيود وساقوني مثلما يساق المجرمون ..

***

مررنا تحت نافذة بيتها . ولكني لم اهتف باسمها . كنت استطيع ان اصيح بكل قواي في ذلك السكون الذي ضم حي سان دنيس ، وكان من الممكن ان تسمع ندائي ، وان تطل من النافذة باسمة مشرقة الوجه. انها لابد الان تدرس وتذاكر بجد ونشاط . وهي بكل تاكيد لاتعلم ان اخاها القي عليه القبض ..

اخيلها جالسة الى طاولتها الصغيرة تقرأ في كتاب وامامها كوب من الشاي الساخن تحتسي منه رشفات بين الحين والاخر ، وتملكتني رغبة شديدة في ان اهتف باسمها بكل قواي حتى اسمع الصدى يدوي في الكنائس الموحشة والممرات المقوسة والساحات الهادئة ، ولكنني لاأحب ان تراني مكبلا اساغ مثلما يساغ المجرمون . وتنفست الصعداء .. لاول مرة أحسست انني حر من التقاليد البالية والعادات السخيفة التي كانت تمنعني من ان احقق ذاتي ، وقلت في نفسي : ان الانسان يستطيع ان يكون حرا رغم التقاليد ، وان يكون عزيز النفس رغم القيود التي تكبله ، وان يبقى نظيفا رغم الاساليب القذرة التي تستعمل معه ، ورفعت بصري الى السماء : كانت صافية تبشر بيوم مشرق جميل . غدا ستشرق الشمس على باريس ولكن شمس بلادي لاتشرق من باريس .. وقلت وانا لاازال أحدق في السماء : يا الهي كيف يمكن ان تكون ارضنا قطعة من ارضهم ؟.. ماذا يوجد من تشابه بين بلادنا وبلادهم ؟..

ان شمسنا الدافئة التي تنضج الشبان قبل الاوان هي التي ستنضج الحرية في ارضنا الطيبة .. كلا !! ان شمسنا لاتشرق من باريس لان اشعتها الرقيقة الناعمة تحمل الينا كل صباح رسالة التضامن والمحبة من اخواننا عرب المشرق ومن اصدقائنا في كل مكان ..

***

الليل هادىء .. ونهر السين يبدو في البعيد لامعا تحت ضوء القمر . كنت اسير بخطوات هادئة تحت حراسة رجال الشرطة الثلاثة وكنت اشعر بكل كياني ان كل خطوة تقربني من المصير الرهيب . وبعد دقائق وقفت بجانبنا سيارة جيب وتساءلت وانا اخذ مكاني في السيارة : ترى ماذا تخبيء لي الايام هناك .. في شارع دي الصوصي ؟.. وفكرت في الامر قليلا ، ولكني لم اعثر على جواب يرضيني وقلت في نفسي : لايهمني ان اعرف الجواب اولا اعرف ، انه سؤال سخيف على كل حال ..

حنفي بن عيسى